الايطالية الحسناء

للشاعر العاطفى الفونس دى لامرتين

(جراتزيلا فتاة من سكان نابولى ، كان أهلها صيادى سمك فقطن فى منزلهم الفونس دى لامرتين أثناء سياحته فى البلاد الايطالية . وكان وقتئذ فى الثامنة عشرة من عمره ، فأحبته الفتاة حباً تملك كل مشاعرها ، لكنه سلاها حالما غادر ايطاليا تلبية لنداء والدته ، فماتت حزناً وكمداً بعد شهور من فراقه ، حتى إذا كانت سنة ١٨٣٠ ، أى بعد الحادثة باثنتين وعشرين سنة تذكرها وهو فى إحدى كنائس باريس يحضر جنازة فتاة تماثلها سناً ، فبكى بكاء مراً ، وتمثل له غدره وخيانته لتلك التى قتلها صده و بعاده ، فنظم هذه المرثية التى هى بلسم للجرح ، و ندى للقلب ، وعطر الزهور التى تنبت على أرماس المحبين)

على شاطىء البحر الخضم ، الذى ترتسم فيه مبانى سورانت ، حيث الأمواج الزرقاء تنبسط تحت أقدام شجر البرتقال ، قالة سياج الأجمة العطر ، أقيم نصب صغير ، لا رواء له ولا بهاء ، قد غطته الأعشاب ، ووارته الزهور ، فاختفى تحتها اسم الراقدة الذى لم يفكر فيه أحد ، ولم يردده صدى ، فاذا ما مر بالجدث عابر سبيل ، واستوقفته عاطفة رأفة وحنان ، فأزاح بيده النباتات ، مستطلعاً طلع ساكنة الرمس ، استعبرت عيناه ، فكفكف دموعه ، وعاود سيره آسفاً حزيناً وهو يتمتم : ستة عشر ربيعاً لم تستتمها ، لقد ماتت قبل أوانها !

أجل ، ستة عشر ربيعاً غير كاملة ، عمر قصير الأمد ، لكنه لم يسطع ألبتة على جبهة أجمل من هذه وأبدع ، ولم ينعكس بهاء هذا الشاطىء المحرق ، فى عين أشد صبابة ولا أكثر هياماً ، إنى أراها وحدى ، كما تركتها الذكرى ، حية فى النفس ، حيث يبقى الشيء دون أن تنال منه يد الموت ، أراها حية كما كانت فى تلك الساعة ، و القلك يسرى بنا على متن الامواج ، و قد علق نظرها بنظري ، فتكلمت عيناها . وصمتت شفتاها . مخافة أن يقطع الكلام لذيذ هنائنا ، وشعرها الاسود الفاحم مستسلم إلى الهواء ، يحله و يداعبه ، وظل الشراع يقيه على خدها

الوردى . وهى تستنشق عبير النسيم العليل ، فأشارت ببنانها الوردى إلى القمر المتلألىء ، ثم إلى زبد الماء الفضى ، وصاحت بتدله : لماذا كل شىء يسطع فى الفضاء وفى نفسى ؟ فهذا الحقل السماوى ، ذو اللون الأزرق السمنجونى ، المنزرع شهباً منيرة ، وهذا الرمل الذهبى حيث تتكسر الامواج ، وهذه الجبال التى ترتعد قننها فى أقصى الفضاء . وهذه الخلجان المتوجة بالغابات الهادئة الساكنة ، وهذه الاضواء على الساحل ، والاغانى على الامواج . لم تهيج قط حواسى . وتملأها لذة مبهمة . وحبوراً خفيا . مثلما فعلته الآن .

لماذا لم يذهب فى التأمل فيما مضى مذهبه الآن ، فهل اعترى حياتى حدث رقيق من شعورى ولطف من احساسى ؟ وهل بزغ فى فؤادى كوكب ، كذلك البازغ فى السماء ؟

وكانت عينها صافية نقية . وشفتها طاهرة عفة . وجفناها لم يكونا ليحولا دون نظرها المملوء طهراً . والسماء تغمر نفسها بالضياء . وروحها أشبه بتلك البحيرة التى لا تجعد سطحها نسمة . غير نسمة الشفافة والنقاء . وجبينها البديع لم يصل اليه الهم ليسمه بميسمه . فكل شىء فيها بطر مرح . وهذا الابتسام اليافع . الذى مات بعدئذ بحزن على فمها . كان دائماً طافياً على شفتيها المنفرجتين . كأنه قوس قزح نقى . فى يوم بهى ذى سناء . وذلك الوجه الفتان لم يستره ظل . ولم يحجبه حزن . لان هذا الشعاع لم ينفذ بعد خلال الغمام . وصوتها الذى يحاكى رنين الفضة . صدى نقى صاف لنفسها الطفلة . وموسيقى لتلك الروح . تنشد على قيثارتها أغانى العواطف . فتسبى وتأسر وتبهج حتى الهواء الذى تصعد على جناحيه .

لقد كانت صورتى هى الاولى التى حفرت فى قلبها ، فتقبلتها كما تتقبل العين اول شعاع من ضوء النهار ، فتغدو ولا ترى غير ذلك النور الذى فاض عليها ، فملأها من سنائه وضيائه ، فعندما أحبت أصبح العالم كله حبا وهياما ، فامتزجت بى وامتزجت بها ، وأصبحت جزءاً منها لحياتها ، فكنت لها الهناء على الارض ، والامل فى السماء والمحور الذى تدور عليه آمالها وامانيها ، فنبذت الماضى ، وأشاحت بوجهها عن المستقبل ولم تعد تهتم الا بالساعة التى هو فيها ، فتلاقى من تلاقينا الليلى هو كل منى نفسها ، هو حياتها ، هو روحها وريحانها ، فكانت تستسلم الى الطبيعة الهادئة . فتبتسم لها هذه عندما تقوم لصلاتها الحارة النقية ، فتيمم صوب الهيكل المقدس ، حاملة بيد زهور التقدمة وقابضة بالأخرى على يدى ، فاسير معها طائعا كطفل ، حتى أقف فى أسفل الدرج ،

فتسر الى بصوتها الملائكى . صل معى لترتفع نفسانا الى السماء ، لانى لا أصبو الى جنان الخلد ، ولا اتمناها اذا كانت خلوا منك .

غاب شخصك فارتعد كل شيء فى أعماق تلك النفس، وانطفأت تلك الشعلة مصعدة لهيبها الماثت الى السماء ، وتغلغل فيها دون أن يرجى له عود ، ذهبت تلك الحبيبة ولم تضن فؤادها بالتعلة والامل ، ذهبت ولم تنازع الآلام حياتها ، بل شربت كأس المرارة والاحزان نهلة واحدة .فاغرقت قلبها فى أول دمعة ذرفتها عيناها ، فحاكت ذلك الطائر الذى اذا جن ليله ، لوى عنقه تحت جناحه ونام، فالتحفت باليأس الصامت ونامت هى ايضا ، ولكن قبل أن يبدوا غسق حياتها وتنتشر طلائع ليلها .

نامت خمس عشرة سنة فى مرقدها الصاصالى ، ولا أحد يبل بدموعه ثرى ملجأها الأخير ، فالنسيان السريع الذى هو كفن الميت الثانى ، قد خطى المر المؤدي الى تلك الحفرة ، فلا أحد يزور ذلك الحجر ، الذى تحت نقوشه يد الزمن ، لا أحد يفكر و يصلى ، غير ذهنى الذى علقت فيه كل ذكريات الماضى، فاذا ما صعدت على أمواج ايامى السالفة ، وسائلت نفسى عن الذين رحلوا من هذه الفانية ،وطفت بعينى على آثارهم الغزيرة ، و بكيت فى سماء حياتى على نجوم عدة غارت وخبا ضياؤها كانت تلك الحبيبة أولى الكواكب التى اندب خسوفها، مع أن ضوءها الهادى اللطيف لم يزل ينير قلبى بنور التقوى والخشوع .

نسيها الناس طرا . لكن الطبيعة لم تنسها . فقد حلت قبرها بشجيرة شائكة صفراء الورق، يابسة العروق . امتصت عصارتها رياح البحار .وأوقفت نموها حرارة الشمس . فدبت على الصخر دبيبا . دون أن ترفع رأسها . فاشبهت تلك الحسرة الحميمة .التى تتسلل الى القلب وتتأصل فيه . ولا تزال تتغلغل فى سويدائه حتى تأتى عليه .

فاذا أقبل الربيع . و بسمت الطبيعة . نبتت على ذياك القبر زهرة بيضاء . كأنها الثلج بنقائها ونصوعها . فتحاصرها الريح ، ولا يدور الفلك دورة أو دورتين . حتى تنثر أوراقها . قبل أن يعطر أريجها الفضاء .

فما أشبهها بساكنة الرمس التى هصر غصنها الغض قبل أن تبهج الحياة فؤادها .

الا بالله خبرينى ايتها الزهرة الذابلة . الا يوجد مكان غير هذا . تزدهر فيه الاشياء ، ازدهارا لا يعتريه افول . ولا يصيبه ذبول ؟ ؟